الطريقة المريدية ودورها في السنغال

الدكتور: نور الدين شعباني
جامعة خميس مليانة

مقدمة:

لقد اعتنق السنغاليون الإسلام منذ القرن الخامس للهجرة/ 11 ميلادي على يد ملك التكرور لبي بن وارجابي الذي دخل الإسلام على أيدي المرابطين وتحالف معهم ضد كفار غانة[1] والسنغاليون اليوم مسلمون إذ يشكل المسلمون 96 ٪ من إجمالي السكان، حيث العقيدة الغالبة فيه هي الأشعرية، ومذهبهم الفقهي هو مذهب الإمام مالك، ويتفشى التصوف في المجتمع السنغالي تفشيًا طاغيًا حتى وصف بعض الباحثين من بني جلدتهم الأمر بأن (كل مسلم في ديارنا في السنغال تجده ينتسب بشكل أو بآخر إلى قيادة من القيادات الروحية التي هي صوفيته).

وتعد الطريقة الموريدية التي أسسها الشيخ أحمدو بمبا في السنغال خلال القرن التاسع عشر أهم نموذج للإسلام الإفريقي أو الإسلام الأسود، إذ بفضل هذه الطريقة ومجهودات شيخها وحركة التعليم التي انتهجها تحول الإسلام إلى ديانة الجماهير السودانية في إفريقيا الغربية وخاصة السنغال وشعب الولوف. أي أن الموريدية حملت قراءة جديدة للإسلام في إفريقيا السوداء، لهذا تعرضت الطريقة إلى عدة انتقادات واتهامات بانحرافها عن الدين الصحيح الذي جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم حاولنا من خلال هذه الدراسة أن نبرز دور الموريدية في نشر الإسلام في السنغال والتجديدات الذي قدمت الإسلام إلى الولوف بطريقة مغايرة وجعلتها تقف على نفس المسافة بين الشعب والسلطة الحاكمة دون أن تخسر أي منهما، ودون أن تحرف النصوص التشريعية أو تتجاوزها.

أحمدو بامبا:

تعد شخصية أحمدو بمبا أشهر شخصية في إفريقيا جنوب الصحراء، ورغم ذلك بقي الكثير من الغموض يكتنف شخصية مؤسسها أحمدو بمبا. وتعد الطريقة المريدية بدون شك إحدى المؤسسات الدينية الإسلامية التي حظيت بأكثر دراسة واهتمام من طرف الباحثين وإذا كانت المعلومات عن حياته عند بداية صراعه مع الإدارة الاستعمارية الفرنسية (1895) متوفرة ومعلومة إلا أن الدراسات حول نسبه وجذور عائلته تبقى نادرة جدا، وهذا نظرا لكون الدراسات الأوروبية[2] ركزت على الجوانب الروحية والسياسية والاقتصادية للطريقة المريدية. وينحدر أسلاف احمدو بمبا من منطقة فوت السنغالية والجولوف، لكن لم يشتهروا إلا بعدما استقروا في منطقة باول (Bawol) حوالي نهاية القرن 18 ميلادي حيث اشتهروا كرجال دين محترمين، لكن تبقى أسباب مغادرتهم للفوتا واستقرارهم بالجولوف غير معروفة لكن نسب احمدو بمبا من حيث الأب يعود إلى قرية عبد الله في مقاطعة لاو (Lao)[3] بمنطقة فوتا تورو السنغالية[4] .

وقبل أن ينالو لقب مباكي كان أجداد احمدو بمبا يحملون اسم با (Ba) حيث كانوا رعاة رحل يتتبعون مناطق الرعي والكلأ لذلك فإن مناطق الجولوف التي هاجروا إليها في النصف الثاني من القرن 17 لم تكن غريبة عنهم[5].

وتشير الروايات الشفوية بان الجد الأكبر لآل مباكي وهو (عصمان – با) كان أول من ترك فوتا السنغالية واستقر في مملكة الجولوف حيث استقبل من طرف ملكها برجل مافينتي نيانغ (Bergel Mafinty Niang) الذي أعجب علمه الديني، كما أن عصمان با هذا كان أول من أخذ اسم مباكي[6] لكن الروايات الشفوية لم تحتفظ لنا بأسماء الأحفاد المباشرين لعصمان با ربما لكونهم لم يكونوا في مستوى شهرته. وعموما فإن عائلة مباكي بدأت تتقرب من عالة الملك برجل عن طريق المصاهرة حيث قام احد أحفاد عصمان وهو حبيب الله مباكي بالزواج

من أرام نيانغ ابنة ملك الجولوف برجل نيانغ وأنجبت له محمد الكبير المعروف مارام مباكي(أو محرم مباكي) وهو جد أحمدو بامبا وهو الذي أسس قرية مباكي بمنطقة الباول وهي مهد أسرة مباكي، وهو أيضا أول من حظي من عائلة مباكي بتلك المكانة والشعبية وذلك التقدير والاحترام في اوساط جولوف منطقة باول[7].

ولد محرم مباكي سنة 1111هجرية/ 1700م بمملكة الجولوف، وقد كرس جزء مهم من حياته للبحث في المعرفة، حيث كسب المعرفة من عدة مدارس بالسنغال وموريتانيا ونال إعجاب أساتذته فأكمل دراسته فأخذ العلم الشرعي والثقافة الإسلامية. وعند عودته إلى الجولوف أسس القرية – المدرسة المعروفة بمباكي جولوف كما تزوج من اكبر العائلات المسلمة المشهورة في كل الجولوف وكايور وباول، فكانت أولى زوجاته هي فاريماتا ساك (Farimata Seck) هي من قرية مسلمة في الجولوف معروفة بتايبا(Tayba) ثم تزوج مرة اخرى من قريبته أوا نيانغ (Awa Niang) من عائلة الملك برجل. أما زوجته الثالثة فهي سخنا بوسو(Sokhna Buso) وهي من إحدى البيوتات العلمية والدينية في الجولوف، ومع زوجته الأخيرة أيسا دام(Aysa Dem) أنجب بالا أيسا (Balla Aysa) أو الشاب حبيب الله الذي اشتهر باسم مام بالا(Maam Balla) وهو جد احمدو بامبا[8].

وكان الابن الاكبر لمحرم وهو أمادو فاريماتا (Amadu Farimata) أول من تزعم آل مباكي في منطقة باول، حيث أدار شؤون القرية لمدة عشر سنوات ولما توفي خلفه أكبر إخوته وهو إبرا أوا نيانغ مباكي (Ibra Awa Niang Mbakke) والذي أدار شؤون القرية لمدة ثلاثين سنة حيث شهدت قرية مباكي توسعا وتطورا ملحوظين كما تطور معه عدة قرى تابعة له، وبعد وفاة هذا الأخير انتقلت زعامة القرية إلى بالا أيسا مباكي وهو جد احمدو بامبا الذي يعد الابن الوحيد لمحرم الذي كان حيا وقتها. وقد ازدادت سلطة بالا أيسا في قرية مباكي خاصة

بعدما تزوج من أنتا سالي كان (Anta Sali Kan) أخت كامون كان (Gammu Kan) وهو مؤسس قرية نجاح كان (Njah Kan) المجاورة لهما ومنها اتخذ اسم (معمر انتا سالي) وقد أنجبت له أحمدو بامبا [9].

ولد أحمدو بامبا سنة 1850م بمدينة باول بالسنغال ونشأ على العلم والتقوى، تلقى أمادو بومبا تعليمه الأولي على يد أعلام أسرته: والده وعمه طابير امباكي، وخاله محمد بوصو ثم الشيخ اليادلي، وقد ركز تعليمه في البداية على علوم الدين وحفظ المتون، فسطع نجمه العلمي وهو في سن مبكرة، ألف منظومته «مسالك الجنان» فأدهشت علماء عصره، فتوافدوا عليه لمشورته في الأمور الدينية والاستماع إليه، حيث اشتغل بالتدريس والتعليم وزادت مكانته العلمية مما دفع العديدين إلى تلقينه بسيد العلماء[10]. ولما بلغ الثلاثين سنة من العمر بدأ يساعد أباه في التعليم وبدأ يبرز كرجل علم وبدأ التأليف حيث كتب عدة كتب في اللاهوت والتصوف[11]. كما بدأ يهتم بعلم الصفات الذي سيتميز به، وهو علم يغوص في البحث عن أسرار التصوف ونقد للسلاطين وحاشيتهم [12].

إن عدم ثقته في نظام السيدو(ceddo)[13] الذي كان يمثله ملك كايور جعله يضغط على أبيه ليبعده عن الملك لات ديور وقصر كايور(Kajoor) ككل، وبدأ ينتقد بعض الأحكام القضائية التي اتخذها القضاة المسلمين التابعين لهذا الملك. لكن أبوه معمر مباكي بقي يحتفظ بمكانته وبقي يحظى باحترام القصر الملكي إذ كان يمثل المستشار الخاص للملك لات ديور. فهذه المكانة التي كسبها كرجل علم وصديق للملك سمحت له بالزواج من إحدى بنات أكبر العائلات الدينية في كايور وهي إيسا جي (Isa Jeey) وهي زوجة سابقة للملك لات ديور وكان ذلك سنة 1864م. [14].

بعد وفاة والده سنة 1880م أراد الحاكم أن يعينه مكانه إماما وقاضيا على مدينة امباكي وهو ابن الثلاثين ربيعا، لكنه رفض هذا التعيين بدعوى إكمال

تكوينه العلمي، فرحل إلى سان لوي ودرس على يد الشيخ الحاج كمارا شيخ الطريقة القادرية، وهناك انخرط في طريقته وأخذ أورادها[15]، ولما علم بالشيخ سيديا كبير مشايخ القادرية بموريتانيا رحل إليه وأخذ عنه، وتوطدت العلاقات بينهما، ثم عاد إلى السنغال، وتبنى مشاكل الولوف وتعاطف معهم، بل إنه ارتبط بعدد من نسائهم الشهيرات مما وطد علاقته بهم، ورفع من مكانته ضمن جماعات الولوف بالسنغال عامة، لكن أحمدو بمبا لما تبنى الطريقة القادرية على أيدي الشيخ سيديا (1869-1924)أدخل عليها مبادئ جديدة فأصبحت تعرف بالطريقة الموريدية [16].

وعند اندلاع الصراع بين ملك لات ديور والفرنسيين[17] بسبب الخلاف حول إنشاء سكة حديد بسان لويس في عام 1882م فإن الأمر اثر كثيرا على رجال الدين والمتصوفة المتحالفين مع ملك الكايور.حيث كان الملك لات ديور قد سبق له وأن وافق سنة1879م وبمباركة مستشاريه على الإمضاء على اتفاقية الترخيص لسلطات الاحتلال في سان لويس لإنشاء سكة حديدية. ولكنه لما درك انعكاسات هذا المشروع على اقتصاد البلد وتهديده لاستقلال منطقة كايور تراجع عن ذلك. وكان عليه الاعتماد على طائفة الموريدية بكايور وتجارها المولدين في سانت لويس مثل عائلتي ديفيس(Devès) وكريسبين (Crespin) التي كان مشروع سكة حديد يهدد مكانتهم كوسائط بين الدوائر الاقتصادية والسياسية في سانت لويس وسكان منطقة الولوف[18].

ولما دخل الملك لات ديور في حرب مع فرنسا تحالف مع طائفة المحاربين السيدو (ceddo) التي كانت تشكل العمود الفقري لجيشه، لكن هؤلاء الأخيرين أصبحوا منذ 1879م قابلين بانضواء مملكة كايور تحت الوصاية الفرنسية، كما أن تدمير عاصمة لات ديورسوجر (Sugeer) من طرف القوات الفرنسية في 1883م وإرسال عدة فرق من الجيش إلى كل كايور من اجل القضاء على ملكها

ومعاقبة اتباعه جعل وضعية شيوخ الطريقة الموريدية المقربون من القصر في وضع حرج ومتأزم [19].

في سنة1888م أسس الشيخ أحمدو بمبا قرية طوبى حيث أصبح يتجمع فيها طلبته حول حلقات الشيخ، كما ستصبح مزارا لطلبته وأتباعه بعد وفاته. وقد استمد اسمها من شجرة موجودة في الجنة، لكن السلطات الاستعمارية لم يعجبها تجمع الناس حول الشيخ لذلك تعرض الشيخ بامبا إلى الاعتقال من طرف السلطات الفرنسية في سان لويس في 1895م، ثم نفي إلى الغابون لمدة سبع سنوات قبل أن يضطر إلى اللجوء القصري لبعض الوقت في موريتانيا، وبعد إطلاق سراحه وضع في الإقامة الجبرية في السنغال، وهذا كله أفاد الطريقة المريدية وقواها. وخلال كل تلك المتاعب التي لقيها الشيخ من السلطات الاستعمارية إلا انه كان دائما يدعو أتباعه إلى ضرورة جهاد النفس ورفضه لكل أنواع الجهاد المسلح، وهذا لتفادي الاصطدام مع الاستعمار الفرنسي [20].

عندما رجع الشيخ أحمدو بمبا من منفاه الثاني في موريتانيا بعد أن رضخ المستعمر الفرنسي لمطالبات وتحذيرات زعماء القبائل والعشائر والتجمعات الدينية في موريتانيا والسنغال، طلب الحاكم العسكري الفرنسي أن يأتي الشيخ بمبا إلى سانت لويس ليلتقيا معاً هناك ويريد أن يتفاهم معه من أجل التهدئة وإنهاء نضاله ضد الفرنسيين. بالفعل أتى الشيخ أحمدو بمبا إلى مقر غريمه الحاكم الفرنسي في سانت لويس، ولما دخل على الحاكم الفرنسي بمقر حكمه واقترب الشيخ منه وبدلاً من أن يمضي إلى الحاكم ليصافحه افترش ثوبه وصلى ركعتين لله وسط ذهول الجنرال الفرنسي وجوقته، وما إن أنهى صلاته قال له المستعمر بلغة مستفزة:

«كيف تتجاهلني وأنا الحاكم هنا ووقفت من أجلك لتصافحني.. فما الذي تفعله في مكتبي»: فأجابه الشيخ احمدو بمبا: «لقد كان لديَّ موعد مع من هو

أكبر منك أكبر منك ومن بلادك وعظمته لا تدانيها عظمة... موعدي كان مع الله ربي.. فماذا تسوي أنت..» ومن تلك الحادثة ما يزال المسلمون يحتفلون في مدينة سانت لويس بركعتي الصلاة اللتين صلاهما الشيخ أحمدو بمبا فيذبحون الذبائح وينحرون الخراف والعجول وتعم الاحتفالات سانت لويس وطوبا وكل مدن السنغال [21].

وعموما فإنه لما توفي أحمدو بمبا سنة 1927م كان قد ترك رمزا لوحدة وقوة المسلمين السود ألا وهي الطريقة المريدية ومدينته المقدسة طوبا (التي استمد اسمها من شجرة في الجنة)، حيث أصبح اليوم 62 بالمائة من أرياف السنغال تتبنى الطريقة المريدية التي تعد طريقة سنغالية، أساسا على خلاف الطريقتان القادرية والتيجانية اللتان توجد مدينتهما المقدسة ومزارهما في كل من موريتانيا والمغرب الأقصى [22].

الطريقة المريدية:

الطريقة الموريدية تعني في أصل معناها: الذين يريدون الوصول إلى الله، واسم الموريدية يرجع إلى مصطلح معروف وشائع في الفكر الصوفي ألا وهو الإرادة، التي يعرِّفها القشيري في رسالته بقوله: « بدء طريق السالكين، وهي اسم لأول منزلة القاصدين إلى الله تعالى، وإنما سميت هذه الصفة: إرادة لأن الإرادةَ مقدمةُ كلِّ أمرٍ، فما لم يُرِدِ العبدُ شيئًا لم يفعله، فلما كان هذا أوَّلَ الأمر لمن سلك طريق الله عز وجل سُمي إرادة تشبيهًا بالقصد في الأمور الذي هو مقدمتها، والمريد على موجب الاشتقاق: من له إرادة [23].

لقد كانت الطريقة الموريدية تتبع عقيدة ومذهب صاحبها احمدو بمبا وهي عقيدة أهل السنة والجماعة فلقد كان الشيخ بمبا سنيا مالكيا مثل اغلب مسلمي السودان الغربي، فحركة احمدو بمبا كانت استمرارا لحركة المرابطين التي ظهرت خلال القرن الخامس للهجرة/ 11م، فالمريدية هي في الأصل حركة

صوفية انبثقت من الطريقة القادرية، لذلك كان الشيخ احمدو يحث أتباعه على إعطاء أهمية بالغة للتربية، وترتيل القرآن، ودراسة الشريعة الإسلامية بالإضافة إلى الرياضيات واللغات الأجنبية [24].

لم يكتف أحمدو بمبا بترديد السنة التي تركها الرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما اجتهد في الوصول إلى البعد الإنساني للإسلام وخاصة الإفريقي وذلك حتى يتوغل به إلى الشعوب السنغالية وغيرها من الشعوب السوداء في إفريقيا، فلقد عمل على إعادة قراءة الإسلام ليسهل فهمه من طرف من يدعوهم إليه [25].

ولقد قامت الطريقة المريدية على مجموعة من المبادئ والتعاليم التي وردت في كتابات الشيخ احمدو بمبا ونصائحه، حيث ركز على تصحيح عقائد أتباعه وعباداتهم وأخلاقهم عن طريق التوحيد والفقه والتصوف، كما كانت تقوم على تزكية النفوس وتطهير القلوب عن طريق الجهاد والخدمة والعمل مع مراعاة الآداب، وكل ذلك يتم تحت إشراف شيخ مرشد يهدي المريد إلى الصراط المستقيم ويبين له موطن الثغرات فلقد لخص ذلك بقوله :

بأن يلازم مطيعالا يميـــــل في ظاهر وباطن عن السبيل

يقـــوده بالعلم والعبـــادة كمـا يـربيه بترك العـــادة

ومنه يتبين لنا بأن أهم مبادئ المريدية هي العلم، العمل، تزكية النفس، الخدمة ومراعاة الآداب [26].

كما تقوم الطريقة المريدية على التعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم من خلال مبايعته على الامتثال لأوامره واجتناب نواهيه ولكن هذا التعلق يحتاج إلى شروط وإلى شيخ يلازمه لتحقيق غايته فيأخذ بيده ويقف عند أمره ونهيه، أما الشروط الواجب توفرها في المريد لتحقيق التعلق فهي ثلاثة:

1. مبايعة شيخ مرشد يربي المريد على منهج الشيخ الخديم.
2. امتثال أوامر هذا الشيخ واجتناب نواهيه.
3. في حالة تلقي الورد المأخوذ احترام شروط الورد [27].

عقيدة أهل السنة والجماعة عند المريدية:

كان الشيخ أحمد بامبا يؤمن بعقيدة أهل السنة والجماعة ويدعو إليها في كتاباته التي بين فيها بوضوح اعتقاده ومذهبه في العبادة والأخلاق؛ فهو أشعري في العقيدة، مالكي في الفقه، وصوفي في السلوك.

يقول الشيخ احمدو بمبا في إحدى قصائده:

هذا، وإني اليوم ذو رضـــــاء بالله ربـا حُـــق بالثنـــــــاء
وبهدى الإسلام دينـا وسبيـــل وبمحمـــد نبيـا ورســـــول
وبكتابـــه وبالبيـــت دليـــل وقبلةً لغيرها لست أميـــــل
وبعقائد السنوسي الشـــريف عقائد في حـق ربنـا اللطيـف
وبتفقـــه الإمـــام مـــــالك تفقها يمنع من مهـــــــالك

والسنوسي المذكور هنا هو الإمام أبو عبد لله محمد بن يوسف ين عمر بن شعيب، العالم الصالح، والفقيه الأشعري المعروف السنوسي الحسني (832 – 895 هـ) صاحب التصانيف الكثيرة والمفيدة التي منها: عقيدة أهل التوحيد المخرجة من ظلمة الجهل وربقة التقليد (ويسمى العقيدة الكبرى، وأم البراهين ويسمى العقيدة الصغرى) وهو الذي نظمه لشيخ أحمد بامبا في كتاب سماه مواهب القدوس). وقد لخص الشيخ أحمد بامبا عقيدته السنية في كتابه فيض الغني المغني فيما عن السلوك يغني [28].

ولقد تجسدت هذه العقيدة السنية من خلال مؤلفات وكتابات الشيخ بمبا التي تناول فيها شرح هذه العقيدة ودعوة أتباعه إلى اعتناقها وتبنيها ومن هذه المؤلفات نذكر: مواهب القدوس، الخدمة المطهرة، الباب الأول في تزود الصغار وتزود الشبان. كما ترك وصية لأتباعه يوصي فيها بإتباع مذهب الإمام مالك بن أنس حيث جاء في الصفحة 143 من مجموعته الكبرى «فأمرتكم جميعا بالمذهب المالكي... عليكم بالمالكية فإنها مُطهَّرة مُنوَّرة»[29].

كما جسد هذا المنهج في قصائده كقوله:

و بعقائد السنوسي الشريـــف عقائدا في حق ربنا اللطيـــف

أئمتي في الفقــه مالك علــي والحنفي والشافـعي والحنبلي

كما ذكر في وصيته للمريدين الراغبين في سلوك الطريق القويم:

أول واجب على المريـــــد تحصيل زاده من التحصيـــل

قبل انشغاله بالانفـــــــراد بالذكر وحـــده وبالاجتهـاد

منتهجا مذهب أهل السنـــة مع الجماعة وتلك الجُـنَّـــة[30]

الطريقة المريدية والإسلام الأسود:

لم يكتف الشيخ احمدو بمبا بترديد خطابات ودروس أساتذته فلقد كان مجددا للإسلام بل حَوَّرَ فيه وبَسَّطَه بما يتماشى مع فهم الشعب السنغالي والشعوب السوداء الأخرى التي كان يدعوها، فلقد غامر الشيخ احمدو بمبا بالاجتهاد في إعادة شرح الشريعة الإسلامية بما يناسب الشعب السنغالي وفي نفس الوقت دون الإخلال بالدين أو تحريف ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم أو الانحراف عن منهج معلمه الشيخ سيديا [31]، فلقد كان االشيخ يلح على دوره التجديدي من خلال عدة أشعار كتبها في هذا الموضوع ومنها قوله:

بالمصطفى نويـــت ما يُجـدّدُ سنتـــه الغـــراء وأني أحمـــدُ

نظافته كلي من اللغو طَهَّـــرتُ وسُنَّـتَـه إن شاء ربي أبيّـــــنُ

وبـــي جُـــدّد السبـــيـــلُ بـــلا عُدَى ولا ألـــــــــمُ[32]

أما الظروف التي جعلت التجديد حاجة ملحة في المجتمع السنغالي فقد حصرها الشيخ بمبا في حالة التدهور في جميع المجالات، بالإضافة إلى الفقر والجهل التهميش التي كان يعيشها المجتمع والتي جعلته يبتعد تماما عن تعاليم الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد لخصها في قصيدته الشعرية التي يقول فيها:

هــذا وإنمَــا عليــه المقتفــى لكثرة الجهل على الناس اختفى
وتبعتهــا سيــرة الصحابــة ذوي الهدى والنور والإجابــة[33]

وبذلك فقد أسس الشيخ أحمدو بمبا ما يعرف بالإسلام الأسود الإفريقي، وهو إسلام يعتمد على نفس القرآن المكتوب باللغة العربية، ويتَّبع السنة النبوية الشريفة بحذافيرها لكن فيما يخص تطبيقها في الحياة اليومية للسنغاليين فقد أعطاها لونا محليا جديدا، فلقد أدرك الشيخ بمبا جيدا ظروف واحتياجات المجتمع في عصره فلقد كان الإسلام في السودان الغربي منذ وقت طويل مخصص لطبقة الملوك وحاشيتهم من الارستقراطية والتجار والنخبة، كما أن الرجل الأسود الإفريقي كان غير ممكن أن يتبوأ المكانة العلمية والثقافية للعربي المسلم، لذلك أراد الشيخ بمبا أن يجعل الإسلام دينا شعبيا وجعل المزارعين الولوف مسلمين بنفس درجة العرب. فلقد استلهم من السنة شعارا بثه في صفوف السنغاليين الولوف وهو «اعمل كأنك لن تموت واعبد الله كأنك ستموت غدا»[34] كما دعا إلى تقسيم المهام في المجتمع مع تحقيق المساواة بين جميع أنواع المهن مع تنصيب شيوخ للطريقة داخل كل الأوساط الاجتماعية[35].

فالاستراتيجية التي تبناها احمدو بمبا كان لها تأثير كبير على المستويات السياسية، الاقتصادية، الدينية والثقافية، فلقد كان الشيخ احمدو بمبا يعطي لأتباعه في بعض الأحيان رخصة بتأجيل أداء الصلاة بسبب العمل في زراعة الفول السوداني الذي كان يشكل ثروة اقتصادية مهمة، فلقد كان يعرف كيف يفصل بين ما هو مقدس وما هو نافع اقتصاديا، لهذا فبعد الاستقلال وبمناسبة تدشين مسجد توبا بعد إعادة ترميمه يوم 07 جوان1963م قال الرئيس السنغالي ليوبولد سيدار سنغور كلمته المشهورة في حق الشيخ احمدو بمبا: «لقد حاول أحمدو بمبا تجذير الإسلام في ارض السودان من خلال أفرقنة الإسلام وسودنته» [36].

علاقة الموريدية بالسلطة:

لقد استغل الشيخ بمبا قوة طريقته من أجل جمع وتوحيد شعب الولوف وقيادته نحو التحرر من التبعية الدينية والسياسية والاقتصادية، ومن أجل الوصول إلى هذا الهدف كان لابد عليه في بعض الأحيان من إيجاد اتفاق مع السلطة القائمة، لهذا فقد انتهج خلفائه من بعده نفس النهج وفي بعض الاحيان يعقدون صفقات مع السلطة من أجل تطوير طريقتهم. لهذا كانت سنوات الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي سواء قبل أو بعد الاستقلال بمثابة السنوات الذهبية لعلاقة الطريقة الموريدية بالسلطة السياسية، حيث كانت هذه الأخيرة تحمي مصالح الطريقة وشيوخ هذه الأخيرة يساعدون الادارة ويدعمونها. ففي عهد الخليفة الثالث للطريقة وهو سيريني عبد اللهات مباكي(Sérigné Abdou Lahat M'Backé) والذي كان لمدة اثنتا عشرة سنة بمثابة الناطق الرسمي لسكان الأرياف لدى الرئيس السنغالي ليوبولد سيدار سنغور حيث اثبت استقلالية قراراته من خلال متابعته لموضوع الجفاف وانهيار أسعار الفول السوداني، وتأزم أوضاع الأرياف في نفس الوقت تمكن من الحصول على مشاريع في مدينته المقدسة طوبى[37]. كما أن هذا الخليفة أصبح المستشار المفضل للرئيس عبدو ديوف منذ 1980م مما مكنه من الاستفادة من إعانات مالية لتجسيد مشاريعه في طوبى، وفي الانتخابات التي جرت سنة 1988م فإن الخليفة العام للطريقة الموريدية دعا طلبته إلى الانتخاب لصالح الرئيس المترشح عبدو ديوف على شكل كلمة نظام وهي: «إن الذي لا ينتخب لصالح عبدو ديوف خلال انتخابات فيفري 1988 يكون قدخان الشيخ أحمدو بمبا»[38].

تنظيمات الطريقة الموريدية (الظهيرة الموريدية):

إن التطورات التي عرفتها الطريقة وتزايد عدد اتباعها، وانتشار الطريقة في الحواضر والمدن، وبغرض مسايرة الاوضاع الجديدة جعل إدارة الطريقة تفكر في انشاء مؤسسات جديدة من أجل مراقبة الطلبة (أو المريدين) الجدد. فمثلما أنشأت مؤسسة الدارة(Daara)، وحقول الاربعاء لتنظيم الشؤون الزراعية للطريقة في القرى والتي تعد مؤسسات موريدية بامتياز، فإن الطريقة اهتدت الى إنشاء مؤسسة جديدة في المدن وهي الظهيرة.

إن الاصل الاجتماعي للظهيرة يعود للوقت الذي كان فيه الموريديون غرباء في المدن، فكان عليهمإيجاد طريقة للتجمع والتعرف والاتحاد فيما بينهم، فكانت الظهيرة في البداية مؤسسة توفر لاتباع الطريقة المكان للتعارف والالتقاء. بالنسبة للنخبة من الفقهاء فإن الظهيرة هي مؤسسة لتأطير طلبة الطريقة في مجال التواصل بين الطريقة وعامة الموريدين، مستعملين الراديو في بعض الاحيان وفي أحيان أخرى الاتصال المباشر ويكون من خلال رؤساء فدرالية الظهيرة المنتخبينم من طرف القاعدة أو عن طريق ممثلي الخليفة العام للطريقة.

كما أن للظهيرة وظيفة اقتصادية وسياسية أساسية، فسلطة رئيس الطريقة تعتمد على عدد المنتمين إلى الظهيرة، حيث أن عدد أتباع الظهيرة يحدد مصادر مالية لطريقة من خلال الاشتراكات، وقوة بشرية مهمة وضرورية لانجاز بعض الأعمال الجماعية للطريقة كما يمكنها من التفاوض مع الدولة بشأن حصول على قروض والتي لم تكن تسدد في غالب الأحيان.

أما بالنسبة للطلبة والمريدين فإن الظهيرة تهدف للحفاظ على وحدة وانسجام موريدي الطريقة لتفادي تشتت شملهم، فكان الطلبة يرددون فيما بينهم الأشعار، وينشرون أدعية ومبادئ الطريقة فيما بينهم. بهدف رفع معنوياتهم وإحساسهم بالقوة وسط الآخرين، ولفت انتباه غير الموريدين، أي أنها بمثابة استعراض

للقوة ودعاية للطريقة. فلقد كان باي فال (وهم التلاميذ الأوائل لأحمدو بامبا) الذين يتولون تسيير هذه الظهيرة ويضمنون الحراسة المقربة للكبار الشخصيات الموريدية خلال تأدية الأذكار والتراتيل والأدعية الصوفية. كما كان للظهير دور آخر وهو الدعاية لفكر أحمدو بامبا من خلال تنظيم أسابيع ثقافية خاصة بفكر مؤسس الطريقة[39].

الدور السياسي لموريدية في السنغال:

رغم أن الموريدية طبقت مبدأ الفصل بين السياسي والديني الذي يعد احد مميزات الطريقة القادرية[40] إلا أنها أعطت للمسلمين الولوف سلطة سياسية في كامل المناطق التي تواجدت بها، فأولى عمليات اعتناق الإسلام بالنسبة للشعب السنغالي عن طريق التكروريين في منتصف القرن الحادي عشر على أيدي المرابطين لكن الإسلام الجماعي والواسع للمسلمين السنغاليين بدأ مع انهيار ممالك الجولوف، الكايور والباول مع دخول الاستعمار الفرنسي سنة1886م. وكان للموريدية نصيب اكبر في هذا الدور حيث بلغ سنة 1990عدد موريديها 270الف سنغالي ويزورها اليوم ثلاث ملايين ونصف مليون حاج من الطلبة الموريديين من كل العالم خلال التجمع السنوي في طوبى[41] وبالتالي تحولت الموريدية إلى اكبر قوة إسلامية في السنغال، وقد استمدت الطريقة قوتها من تعاليم الشيخ احمدو بمبا التي تركز علي القيم الروحية للعمل، الميثاق الذي يربط أتباعها بالطريقة، وخاصة على بناء توبا كعاصمة سلامية عالمية وحديثة، حيث يزعم بأنه على هذا المكان المقدس تم تعيين احمدو بمبا كغوث من طرف جبريل عليه السلام [42].

إن اتخاذ توبا كمزار يستند الى القصة الاسطورية لمنفى الشيخ احمدو بمبا الى هذا المكان الموحش وزيارة الملك جبريلو لقائه تحت شجرة (مباب)، وأن هذا المكان تم اختياره من طرف الله سبحانه وتعالى كعاصمة روحية للعالم، لان

شجرة هذه الشجرة حسب زعمهم هي التي تدعم جنة سدرة المنتهى، وتزعم الاسطورة بأن الشيخ احمدو بمبا نفسه كان يردد خلال منفاه «الخالد وهبني الشرف الخالد عن طريق النهج المؤدي الى الجنة»[43].

ولقد أنجز الشيخ بمبا مخطط مدينة طوبا عن طريق تجميع عائلته اولا في هذا المكان، بعدها بدأ يلتحق به تلاميذته الذين درسهم في مملكة الولوف والذين كانوا من طوائف مختلفة(سيرير، فلاته، تكرور، ليبو، ولوف، ماندينغ وغيرهم). فلقد بدأ ينظم اليه العبيد المتحررون حديثا، والطوائف الحرفية، وبدرجة أقل السيدو وهم المحاربين الاشداء وقطاع الطرق وذلك بغرض الانتقام من العدائهم، ولما اعتنق الامير خانش فال الاسلام تحول الى الشيخ ابراهيم فال وكان أميرا وليا للعهد ومتعلما ومحاربا فاعتنق الطريقة الموريدية وأصبح تلميذا لاحمدو بمبافي سنة 1886م، وأسس دولة الروح في ذلك الوقت [44].

لقد كانت الموريدية خلال فترة الستينيات من القرن العشرين تتميز بوضع خاص في السنغال، فهي من جهة تمثل طائفة كبار رجال الدين ومن جهة أخرى كانت منخرطة في النشاط الفلاحي أو التجارة الموازية. كما انها كانت أيضا تشكل اقلية مقارنة بالطريقة التيجانية وبعيدة عن أقطاب مركز الحياة السياسية الوطنية السنغالية وخاصة الأوساط اليسارية المتطرفة مثل الحزب الإفريقي للاستقلال المكون من النخبة السنغالية المثقفة ثقافة فرنسية ومتوجهة نحو دولة لائكية ومتأثرة بالمبادئ اليسارية الذي تمثله الكاثوليكية الاجتماعية. لكن خلال السبعينات من القرن الماضي طلبت السلطة السنغالية آنذاك من خليفة الطريقة الموريدية أن يأمر طلبة الطريقة بدعم السلطة وهذا بعكس موقف التجانية التي كانت تساند المعارضة. وبذلك بدأت الموريدية من خلال تنظيم الظهيرة تقتحم الأوساط النخبوية في الساحة العمومية السنغالية، فتأسست ظهيرة خاصة وسط طلبة جامعة داكار واقتحمت الاتحاد الثقافي الإسلامي (الذي أسسه الشيخ

التوري الذي يعد أب المصلحين المسلمين السنغاليين) وبالتالي تمكنوا في جويلية 1977 خلال خمسينية وفاته من تنظيم أسبوع ثقافي مهدى لحياة الشيخ أحمدو بمبا، ومن جانب آخر قامت مجموعة من الطلبة يؤطرهم الشيخ عبد اللاي دياي باختراق جمعية الطلبة السنغاليين المتربصين بفرنسا، وأسسوا جريدة نديجل (Le Ndigël): صوت المورید[45].

وكان احمدو بمبا خلال تلك التظاهرات يقدم ليس على انه رجل صوفي وعالم دين كبير، أو أنه أول أسود استلهم أفكاره من حركة النهضة الإسلامية الحديثة فقط، وإنما أيضا كشخصية كبيرة للمقاومة ضد الاستعمار بل يمكن مقارنته بكبار الشخصيات الإنسانية مثل المهاتما غندي ومارتن لوثر كينغ[46].

فلقد كان رجال الطريقة يعترضون دائما قضية التغريب التي أصابت النخبة السنغالية بعد الاستقلال وارتمائها بكل ثقلها في حضن الثقافة الفرنسية، أي أنها كانت دائما تحاول تنصيب نفسها كمحارب للاستعمار والاستعمار الجديد، بالإضافة إلى تصديها للتيارات اللائكية والإلحادية في السنغال [47].

وبعد صراع كبير مع السلطات السنغالية تمكنت الجمعيات المويدية وبفضل مساندة خليفة الطريقة بتوبا من فرض الاحتفالات والمراسيم السنوية المعروفة ب(الركعتين) والتي تحولت إلى (ماغال Magal)أي بمثابة حج للولوفو يحظى بأهمية قصوى بعد الحج الذي يشد فيه الرحال إلى توبا والمعروف ماغال الكبير والذي يخلد فيه المويديون كل سنة ذهاب الشيخ احمدو بمبا إلى المنفى[48].

الصراع المويدي التيجاني:

إن الدعاية التي كان يقوم بها المويدون في المدن ف إطار الظاهرة وخاصة تلك المقامة في داكار كانت تسبب قلقا للمسلمين السنغاليين الآخرين من غير أتباع المويدية وخاصة السلطات العمومية.

ومنذ انعقاد الأسبوع الثقافي المنعقد بين 24و31 ديسمبر 1979 بدكار، وذلك المنعقد بمقر المنظمة الدولية العلوم وللثقافة (UNESCO) بباريس والخاصان بالشيخ احمدو بامبا، فإن الموريدية احتلت صدارة الأحداث السياسية والدينية في الإعلام السنغالي، مما جعلها تصطدم بالطرق الأخرى المنافسة لها في السنغال وخاصة التيجانية وجعلها تؤسس هي الأخرى ظهيرة للطلبة التيجانيين في المدن.

ففي شهر فبراير من سنة 1979م ومن أجل الحفاظ على سيطرة الطريقة التيجانية على بقية الطرق الصوفية الأخرى فإن موسم الحج الذي كان يقام كل سنة من طرف التيجانيين إلى عاصمتهم الروحية تيفاوان خصص للتصالح بين زعماء الطريقة التيجانية وترأسها (الشيخ الحاج عبد العزيز سي) كما تم تنظيم أسبوع ثقافي للتيجانية في مدينة سان لويس السنغالية في أفريل1980م والذي كان مشابها لما كانت تقوم به الظهيرة الموريدية وأسابيعها الثقافية، وقد لقيت هذه التظاهرات تسهيلات من طرف شخصيات بارزة وذات نفوذ في الدولة السنغالية كانوا من أتباع التيجانية بهدف وقف تنامي الطريقة الموريدية، هذا الوضع كاد أن يؤدي إلى حدوث اصطدام بين اكبر طريقتين في البلد لولا التعزيزات الأمنية التي أجريت من أجل تفادي حدوث ضحايا. كما أن تزايد عدد المنخرطين الشباب في صفوف الطريقة الموريدية أدى إلى تنظيم دعاية مضادة للموريدية من طرف التيجانية . حيث انه في 19 جويلية1979، وزع أتباع الطريقة التيجانية منشورا في إحدى البنايات الإدارية بدكار مكون من ثلاث صفحات يؤكدون فيه بأنه في نظر أي مسلم مثقف فإن الموريدية هي الطريقة التي تغوص أكثر في البدعة، ونجدهم كثيرا في النشاطات الممنوعة وذات الأهداف الغامضة والمشوشة[49].

فكرة المهدية عند الطريقة المويدية:

إن المهدية أو انتظار المهدي المنتظر منقذ البشرية هي عقيدة يشترك فيها كل المسلمين، أما المويدين فلهم مهديهم المنتظر وهو احد المويدين، حيث لما سئل طلبة الطريقة عن المصير السياسي للسنغال بعد الاستقلال فأجابوا بأن اسم الرئيس السنغالي السابق ليوبولد سيدار سنغور مكتوب في أشعار على جدران مسجد طوبى، وقالوا بأن من يحكم البلاد من بعده وإلى غاية نهاية الحياة الدنيوية هم طلبة الطريقة المويدية[50].

الخاتمة:

إن حركة الشيخ أحمدو بمبا أثبتت بأن الإسلام لم يكن يوما موجها للعنصر العربي دون غيره من الشعوب وأنه دين الإنسانية جمعاء، حيث تمكن هذا الدين بفضل المريدية وعبقرية الشيخ بمبا من الانتشار بسرعة في القارة السمراء. فبعد كل تلك المجهودات التي بذلها الدعاة الاباضية والمرابطين وشيوخ المحاضر الصحراوية عبر قرون عديدة تمكنت فقط من نشر الإسلام في وسط بالنخبة الإفريقية، بينما بقي الإسلام سطحي بالنسبة لعامة السودان. لكن حركة الشيخ بمبا جعلت الإسلام يتجذّر حقيقة في وسط سودان السنغال، بل ويحوّل إحدى مدنها وهي طوبى قبلة للإسلام والمسلمين بعد الحرمين الشريفين.

فلقد أثبت أحمدو بمبا قدرة وموهبة المسلم الإفريقي التربوية والدعوية وحتى التنظيمية، وأبان عن ارتقاء الشعب السوداني روحيا من خلال تجسيده لأرقى مستويات الزهد والتصوف، وهو ما جعلها من أقوى الجماعات الدينية بالسنغال وأفريقيا الغربية، إذ بسطت سلطتها المعنوية على أرض السنغال من خلال مركزها الروحي بطوبى. لهذا يحق لهذه الطريقة أن تدعى بطريقة الإسلام الأسود.

الهوامش:

(1) البكري(أبو عبيد الله بن عبد العزيز):المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، مقتبس من كتاب المسالك والممالك. مكتبة أمريكا والشرق ميزونوف، باريس، 1965م، ص179.

(2) نذكر من هذه الدراسات ما قام به فانسون مونتوي (Vincent Monteil) في كتابه الإسلام الأسود (L'islam noir 1966)، وكذا د.كرويز اوبريان (Dr. Cruise O'Brien 1971)) في كتابه موريدو السنغال (The mouride of Senegal 1973).

(3) لاو: هي منطقة تقع في شمال السنغال الحالية في مقاطعة بودور في ولاية سان لويس بالقرب من نهر السنغال، وكان يسكنها الرعاة الذين كانوا ينتشرون في قرى شمال السنغال من اجل البحث عن المراعي في فصل الصيف ومواسم الجفاف ابتداء من شهر نوفمبر إلى غاية شهر ماي

(4) Cheikh Anta Mbacké Babou, généalogie, éducation, et baraka (grâce divine) dans la famille Mbakke : uue exploration de quelques sources de l'autorité spirituelle d'Amadu Bamba. Verdier | Afrique & histoire 20091/ - vol. 7, p 203

(5) Ibid, p204.

(6) هذا الاسم اشتق من كلمة (Pulaar Mbakkuudde Jahen) التي تعني «لنجهز أمتعنا للسفر»، وهي الكلمة التي تلفظ بها عصما نبا عندما ترك فوتا للالتحاق بمملكة الجولوف. (Ibid, p205).

(7) Ibid,p206 .

(8) cheikh Anta Mbacké Babou, Op.Cit, p20

(9) Ibid, pp du 201 au 2014.

(10) عبد العزيز بن عبد الله، معلمة التصوف الإسلامي، نشر دار المعرفة، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة أولى، 2001م، الجزء الثاني: التصوف المغربي من خلال رجالاته، ص 224.

ـــــــ عبد الله، عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، نشر مكتبة مدبولي، إشراف سعيد أبو مسلم، المطبعة الفنية، القاهرة، 1990م، ص 112.

(11) من هذه الكتب نذكر مواهب القدوس وهو شرح لكتاب السنوسي المتوفى سنة 1490م، وكتاب أم البراهين و مُليّن الصدور وهو كتاب فرها.ي التصوف، كتاب الجوهر النفيس وغيرها من الكتب الخاصة بالفقه المالكي.

(12) cheikh Anta Mbacké Babou, Op.Cit, p225.

(13) تييدوس أو ثييدوس او سيدوس، وهم مقاتلون كانت تعتمد عليهم ممالك السنغال الوثنية، والكلمة أصبحت تعني المجتمعات غير الإسلامية أو معادية للإسلام التي ظهرت في السنغال بعد سقوط مملكة السونغاي، وخاصة في صفوف =شعوب الجولوف والسيرير والتكرور.

Marcel sommer, Les villes et: L'image de la ville dans la littérature) les livres africaine francophone Editions L'Harmattan, 1 juil. 2007, p54).

(14) Cheikh Anta Mbacké Babou, Op.cit., p226.

(15) عبد الله، عبد الرازق إبراهيم، أضواء على الطرق الصوفية في القارة الإفريقية، مرجع سابق، ص 112.

(16) Jean-Pierre Mulago Laval, Pour Les mourides d'Ahmadou Bamba : un cas de réception de l'islam en terre négro-africaine .In revue théologique et philosophique, vol. 61, n° 2, 2005, p294.

(17) Rapports sociaux de sexe-genre et droit: repenser le droit. Editions Archives Contemporaines, Paris, 2008, p98

(18) Cheikh Anta Mbacké Babou, Op.cit,p227.

(19) Olivier Michel,L'autre Mecque est en Afrique. In Le figaro, numéro du 11- 01 -2013.

(20) Jean-Pierre Dozon, Op.cit., p861.

(21) مع الشيخ أحمدو بمبا وسانت لويس، موقع الكتروني.http://www.alintibaha net/portal نشر بتاريخ 06 سبتمبر 2013.

(22) أبو القاسم عبد الكريم (القشيري) الرسالة القشيرية، دار الكتب العلمية، بيروت، ص236.

(23) Jean-Pierre Mulago Laval, Pour Les mourides d'Ahmadou Bamba, Op.Cit, p297.

(24) Ibid, p297.

(25) Ibid, p297

(26) مدونة سام بوسو عبد الرحمان مفتش التعليم العربي مدينة تياس بالسنغال . سؤال وجواب عن الطريقة المريدية في موقع الكتروني: http://samebousso.blogspot.com اطلع عليه يوم 09 ـ 05 ـ 2010

(27) نفسه.

(28) سرين امباكّي عبد الرحمن بمساعدة الأساتذة: (محمد المصطفى لَيْ، الشيخ امباكّي عبد الودود، بوسو حسن، بوسو تمبا)، عقيدة أهل السنة والجماعة عند الشيخ أحمد بامبا فكرا وممارسة، محاضرة ألقيت في إطار دائرة روض الرياحين في تجمع مغال بطوبى في 18 صفر1431ه. الموافق ل3 فبراير 2010م.

(29) امباكّي، المرجع السابق،ص14 . سرين عبد الرحمن .

(30) نفسه.

(31) David R. OLSON, The World on Paper, Cambridge, Cambridge University Press, 1996, p 108.

(32) مدونة سام بوسو عبد الرحمان، المرجع السابق.

(33) نفسه.

(34) Jean-Pierre Mulago Laval, Pour Les Mourides d'Ahmadou Bamba, Op.Cit, Pp296,297.

(35) Sophie BAVA et Danielle BLEITRACH, « Islam et pouvoir au Sénégal ,Les mourides entre utopie et capitalisme, dans Politique africaine, Paris, Karthala, 2000,p26.

(36) Jean-Pierre Mulago Laval, Op.cit., p298.

(37) Ibid, p299.

(38) Ibid,p299.

(39) Momar coumba diop,Fonctions et activités des dahira mourides urbains(Sénégal), Cahier d'études Africaines, Anneé 19811982-, N°21, pp79, 80, 81.

(40) Jean Schmitz(Chargé de recherche à l'IRD, Centre d'études africaines) L'islam en Afrique de l'Ouest :les méridiens et les parallèles, Autre part (16), 2000 ,122.

(41) Olivier Michel, L'autre Mecque est en Afrique. In Le figaro,112013-01-,
(42) Tshikala K. Biaya , Le pouvoir ethnique. Concept, lieux d>énonciation et pratiques contre l'État dans la modernité africaine : analyse comparée des Mourides (Sénégal) et Luba (Congo-Zaïre) Anthropologie et Sociétés, vol. 22, n° 1, 1998, p 115.
(43) Ibid,p115.
(44) Ibid, p115.
(45) Jean-Pierre Dozon, Op.Cit, P865.
(46) Ibid,p865.
(47) Ibid,p865.
(48) Ibid,P866.
(49) Momar Coumba Diop Fonctions et activités des dahira mourides urbains (Sénégal).
In: Cahiers d'études africaines. Vol. 21 N°811981 .83-. pp82,83.
(50) Ibid, p 85.